ثقافة ومنوعات

مقابلة | أجراها **بشير البكر**

ثائر هلال تشكيلي سوري من الأجيال التي بدأت الرسم قبل أزيد من عقدين، وتمكنت من تقديم لوحة جديدة ذات مواصفات عصرية، غير منقطعة الصلة عن البيئة المحلية. يتمتع بخصوصية وفرادة أسلوبية، ورؤية فنية تعتمد على مواصلة التجريب بمنهج تجريدي متحرّر يشتبك مع أسئلة الذات والخارج، والعمل على مساحات لونية كبيرة غنية بالتفاصيل

ثائر هلال

اللون ليس خياراً جمالياً فقط بل شهادة على زمن لا يحتمل الحياد

لا أرى فارقاً في جوهر إبداع الفنانين السوريين بين من بقوا ومن هاجروا

أحلم بعودة دمشق حرّة تنبض بالحياة والحب والفن والثقافة

التشكيلي ثائر هلال في مرسمه بمدينة الشارقة، 2024 (ورد هلال)

■ أين كنت عندما سقط النظام السوري، وكيف استقبلت الحدث؟

كنت في الإمارات، أتابع مشهد الانهيار المتسارع لبنية الطغيان بعيون تفيض بالفرح لا بالدموع. لحظة التّحرر لم ينتظرها السوريون فقط، بل كل من آمن بأن للكرامة ثمناً، وللحرية موعداً. لم يكن سقوط النظام مجرد خبر؛ كان شرياناً جديداً للحياة. كان العالم يتغير أمام عيني، وكانت سورية تكتب فصلها الأعظم بثمن باهظ من الدم والنور معاً. عشتها بكل نبضاتي، واستقبلتها بفرح يليق بانتصار الكرامة على القمع.

■ إلى أي مدى تأثرت بانتقال سورية من حال إلى حال؟

قد لا يُقاس التأثّر بالكلمات؛ هو تحوّل داخلي يشبه ثورة على مستوى الذات أيضاً. كنت أراقب بلدي يتحرّر من وهم القوة الجبرية، وأعي كيف أن الفنان الحقيقي لا يقف متفرّجاً أمام هذا التحول. سورية تحوّلت إلى مسرح ضخم للبطولة والمعاناة، ومعها تأكدت رؤيتي للفن: إذ لم يكن اللون مجرّد خيار جمالي، بل إيمان وشهادة حية على زمنٍ لا يحتمل الحياد. الفن مسؤولية، فالصورة أداة تغيير وصوت حق.

■ هل ترى أن سقوط النظام يمكن أن يترك أثره على اللوحة والثقافة في سورية؟

سوف يكون سقوط الطغيان بداية لتفجير طاقات جديدة ومستمرّة لم تتحقق عقوداً. اللوحة السورية بعد الثورة لم تعد تبحث عن التجريد المعزول، بل صارت مرآة مفتوحة على الأسئلة الكبرى: الحرية، العدالة، الفقد، الأمل. كل ريشة، كل مساحة لونية تحمل ثقل التجربة السورية: مزيج من الألم والخلاص. الثقافة اليوم تخرج من حطام الرقابة والخوف، وتبني خطابها الجديد بشجاعة مذهلة، والفن هو أول من يكتب هذا الخطاب بلغة العالم المتمدن.

■ تخرّجت من كلية الفنون في سورية، ولكن معرضك الأول لم يكن في بلدك، بل في الإمارات، لماذا؟

خرجت من سورية منذ بداية التسعينيات متهرّباً من «الخدمة العسكرية». كنت شاباً صغيراً صاحب حلم كبير مندفعاً للبحث والمغامرة، وعندي تطلّعات طموحة للتواصل مع بيئة ومناخات منفتحة على آفاق مختلفة، وعن فضاء لأتنفس الحرية. البيئة الفنية في سورية آنذاك كانت مرهونة بمزاج تقليدي مترهل محدود محكوم من أجهزة أمنية تتوجس من المشاريع الإبداعية، ومحاولات الشباب في التعبير. واستطعت خلال فترة أن أحقق لنفسي استقراراً نسبياً جيداً، أقمت في إمارة الشارقة التي أحبها، وانطلقت منها وهي لا تزال عاصمة النشاط الثقافي في الخليج. عملت رساماً صحافياً فترة كانت مهمّة في حياتي المهنية، إلى أن انتقلت إلى العمل في كلية الفنون الجميلة والتصميم في جامعة الشارقة منذ 2006 مدرّساً مادة الرسم. إلى جانب ذلك، كنت قد أسست محترفي الخاص وانكفأت على العمل بصرامة، وكوّنت أسرة جميلة. كانت الأبواب تفتح أمامي ولا تزال للاتصال بأهم فعاليات عالم الفن، وتمكّنت من السفر إلى بلاد كثيرة، تعلّمت من خلالها ما لم أكن أحلم به. وكنت قد أقمت معرضي الفردي الأول في أبوظبي في المجمّع الثقافي حينذاك، شعرتُ أنني أقدّم شهادة ميلاد جديدة، ليس لي فقط، بل لكل فكرة حرة كنت أحملها منذ دراستي الأولى.

■ عرضتَ لاحقاً في سورية، هل كان معرضك الوحيد في غاليري أيام، ولم تكرّر التجربة؟

في سورية، كانت تجربتي الأولى بعد انقطاع طويل في معرض فردي في «غاليري الأتاسي» عام 2007، وكانت تجربة اختبارية ناجحة نسبياً، إذ احتضن أساتذتي والأصدقاء والوسط التشكيلي السوري تجربتي التي لم تكن معروفة عندهم. وفي 2008، انضممت إلى «غاليري أيام» ووجدت نفسي في موقع مسؤولية جديدة مع مجموعة من أبرز فناني سورية، وكان معرضي الفردي الثاني في دمشق 2008 في غاليري أيام في دمشق، بعدها، أقمت معرضي الأول في بيروت أيضاً في «غاليري أيام» وكان من أجمل معارضي فعلاً للخصوصية العالية لبيروت الثقافة، ثم دبي والقاهرة ولندن وهكذا.. لكن بعد أن انطلقت الثورة السورية العظيمة، لم أعد إلى الشام حتى اليوم.

■ هل تحدّثنا عن تجربتك مع «غاليري أيام»، أين الإيجابي والسلبي؟

«غاليري أيام» منصة احترافية مهمة، والعلاقة كانت ولا تزال مهنية تشاركية، فيها إيجابيات كثيرة، خصوصاً أنها رسخت قيماً جديدة من حيث طبيعة العرض الاحترافية والفضاء المتحفي، وكذلك الانتشار وبرنامج تنظيم عروض الفنانين، وسلسلة الكتب الفنية والمطبوعات، التي لم نشهد مثلها في العالم العربي. وبطبيعة الحال، هناك دائماً هامش من التحفظ، فالمعادلة بين السوق والحرية الإبداعية معقدة، الفنان يحتاج إلى مساحة أكبر من مجرّد العرض أو التسويق، يحتاج إلى حوار ومخاطرة، وإلى هامش واسع للتجريب، حيث على الفنان أن يمسك بمسافة واضحة تحمي استقلاليته الإبداعية، وهذا يحدث في الأدب والموسيقى والسينما والمسرح، ولا بد من هذا الشريك، لأن المبدع بحاجة ماسة إلى فريق عمل، أو جهة تأخذ على عاتقها خطوة لتدفع بالعملية الإبداعية إلى النور وهي تختلف باختلاف مستوياتها.

■ هل تابعت نتاج زملائك السوريين خلال الثورة؟ وما الفرق بين من بقوا ومن غادروا؟

تابعت أعمال أغلب زملائي الذين بقوا في الداخل، والذين خرجوا، والذين هم أصلاً خارج البلاد، وكنت أقرأ فصول الثورة، خصوصاً التجارب التي وجدتها على درجة رفيعة من التعبير. بعض الأعمال مذهلة وعظيمة وأرى أن هناك خصوصية واضحة لكل محاولة. عايش الفنان في الداخل تجربة تعبيرية مختلفة، القمع وخطر الاعتقال والموت والحصار والقصف ورسم على أنقاض المدن والأحلام، أما من غادر، فقد حمل الوطن شرارةً مشتعلةً بين ضلوعه. لا أرى فارقاً في جوهر الإبداع لدى من بقوا ومن هاجروا. كانت الثورة دمغة وجودية علينا جميعاً، والمهم في الفن أن الفنان لم يخن ذاكرته ولم يتواطأ مع الجلاد، كانت لوحات بعض الفنانين تنبض بالحياة والمقاومة والصمت الصاخب أحياناً. أما الفنانون في الخارج، فتمتعوا بهامش أوسع للتفكير وإعادة النظر، وأنتجوا أعمالاً فيها بعد تأمّلي عميق. التجربتان مهمتان، ولا يمكن اختزال إحداهما في الأخرى، بل يشكّل التنوع بينهما المشهد التشكيلي السوري الأوسع.

■ لكن هناك من يرى أن الحرية التي وجدها الفنانون في الخارج أثرت على المشهد التشكيلي؟

في المحترف التشكيلي السوري الحديث والمعاصر، معظم التجارب تأثرت بشكل أكيد بالتجارب الغربية، وهذا طبيعي في الفكر الإنساني، كما هي بقية العلوم، تنتقل بوصفها خلاصة معرفية تنعكس في تطلعات البشر وسعيهم إلى حياة عادلة وآمنة. تحوّلت الحرية إلى محرّك داخلي هائل للإبداع عند الشريحة الأوسع. لم يكن الخارج فسحة جغرافية فقط، بل كان تجربة وجودية حرّرت الخطاب البصري من الأكاذيب القديمة، والخنوع الإبداعي والزيف التعبيري الذي لا فائدة منه. أصبحت بعض التجارب السورية المعاصرة أكثر وعياً بمنجزاتها، وأكثر جراءة في استخدام أدوات جديدة للتعبير عن هويتها المتجدّدة. نضجت التجربة السورية بشكل لافت لتتحدث مع العالم بلغة الفن من دون أن تفقد جذوتها، مليئة بالحياة والحرارة والانفعال.

■ راكمت خلال العقود الثلاثة خبرات وكونت شخصية خاصة للوحتك تميزها عن غيرها، كيف وصلت إلى أسلوبك وأدواتك التقنية الخاصة؟

لم تتبع تجربتي مخططاً هندسياً مسبقاً، بل تشكلت عبر سنوات من التأمل، والتجريب، والرفض، والانقطاع. لم تأتِ دفعة واحدة، بل كانت مسيرة تراكمية وطريقاً متعرجاً، فيه محطات استطعت خلالها أن أخط لنفسي أسلوباً وطريقة عمل شاق مبني على الاختلاف والتحدّي، فقد تأثر بأدوات متعددة: التجارب الفنية التي شاهدتها، التجارب التي كنت على صلة مباشرة بها، القائمة على بحث بصري وفلسفي دائم في جوهر الأشياء ومعانيها. وجدت في التجريد لغتي لتجاوز الظاهر، تتيح لي النفاذ إلى أعماق الواقع لا عبر تمثيله، بل بإعادة تأويله. اللون والخط في أعمالي كانا أساسيين ينبضان ككائن حي، يتحولان إلى طاقة صدامية، الطبقات تكشف الذاكرة وتراكم التجربة، بينما استخدمت المحو لا إلغاءً، بل كشفاً عن المستتر والمقموع، اشتغلت كثيراً على التضاد بين السطوح الحادة الخشنة وبين الشفافية الحساسة، ليس بحثاً عن تباين شكلي، بل تجسيداً لصراع الذاكرة مع الحاضر، والهشاشة مع القسوة، والرمزي مع المادي. هذه الخيارات كانت دائماً انعكاساً لفلسفتي في جعل اللوحة مساحة استكشاف ومتعة ودهشة وصراع مفاهيمي، لا مساحة للزينة.

■ يبدو لي أن هذا المنهج الذي تتحدث عنه خضع لتجريب متواصل، ما رأيك؟

في مرحلة مهمة من مسيرتي، خضت تجربة اختبارية أعتبرها ناجحة باستخدام مواد غير تقليدية، بينها مواد مصنّعة جاهزة وأجسام ثلاثية الأبعاد، في أعمال اقتربت كثيراً من مفهوم التجهيز والنحت، حققت تميزاً واضحاً من حيث الدلالات الرمزية وارتباطها بواقع مادي ومعنوي، مباشر وغير مباشر. أعتبر تلك التجربة علامة بارزة أيضاً في مشروعي الفني، رغم أنني لم أتمكّن من الاستمرار بها لأسباب صحية. ومع ذلك، لا تزال هذه المنطقة الفنية تسكنني، وأترقب الفرصة للعودة إليها، لأنني أؤمن بأنها لم تقل بعد كل ما يمكن أن يُقال، وأنها تحمل إمكانات كبيرة للتوسع والنجاح مستقبلاً.

■ معرضك «إبحار عبر لا شيء» هو في سياق التجريب أيضاً، لكنه يعكس إمعاناً في التجريد؟

«إبحار عبر لا شيء» محاولة مختلفة للخروج من المعنى المباشر، والغوص في الفراغ بوصفه حالة وجودية. نعم، هو إمعان في التجريد، لكنه تجريد غير صوري. هو تجريد مأهول بالأسئلة، بالذاكرة، وبالرغبة في التحرر من النمط والشكل التقليدي والاستمرار في التجريب، خطوة لتحول ما أو قد يكون مفترقاً لمرحلة في تجربتي، لأنه يطرح سؤالاً لا عن «ماذا نرسم؟» بل عن «لماذا نرسم؟» وما الذي يمكن أن يُقال بعد كل هذا الخراب، كان هذا تتويجاً لرحلة استكشاف الذات في مواجهة العدم. كل عمل فيه كان بمثابة مخطط بسيط أو خريطة للبقاء، للتمسك بالمعنى وسط فوضى الانهيار والتردّي الكبير. لم يكن معرضاً عن الألم فقط، بل عن القدرة العجيبة للإنسان على مقاومة المحو. كل لوحة كانت تأكيداً أن الفن ليس ترفاً، بل ممارسة في مواجهة العدم.

■ ماذا ترسم الآن، وهل تفكر بالعرض في دمشق؟

ما أرسمه نوع من التأمل النفسي والترجمة البصرية للحيرة، للرغبة في الاستمرار رغم كل شيء، وهو ليس شهادة مباشرة. أكيد أفكر بالعرض في دمشق، وهذا هاجس دائم، فدمشق نافذتي الأولى والأخيرة، لكن سورية الجديدة التي لطالما حلمت بها لم تولد بعد، لكنها تكبر في خيالي، وإذا رسمت، فسوف أرسم روح مدنها التي تحرّرت من الركام، وأرواحاً تعلّمت الطيران رغم الشظايا. أما دمشق، فإنني أحلم بها وهي تعود مدينة مفتوحة للعالم، حرّة، تنبض بالحياة والحب بالفن والثقافة لا بالخوف والدم. سيكون لي هناك معرض ذات يوم، معرض مستحق يحتفي بها حرّة من الاستبداد، أتمنّى أن تكون كل العروض الفنية حواراً مفتوحاً يلامس الناس، وأن يعود النشاط الثقافي والمعرفي إلى سورية بشكله الحضاري المؤثر، وأن تعود صالات العرض والمسارح ودور السينما إلى دورها الريادي في النهضة بعيداً عن الغنائية الماضوية.

■ أنت من مواليد ريف دمشق، هل تحضر الطفولة والمكان الأول حين ترسم؟

تحضر الطفولة جذراً روحياً لا ينفصل عني بالتأكيد، ولهذا أثر عميق، فالريف له خصوصياته ليس فقط من حيث الصور البصرية، بل من حيث العلاقة مع الأرض، مع التفاصيل الصغيرة، مع الضوء المتبدل والعتمة والفراغ، الطفولة هناك لم تكن رومانسية، بل عميقة ووجودية. هذا الريف لم يتركني، بل يعود إليّ في كل لوحة، وإن بشكل رمزي. الأثر الجغرافي للطفولة يبقى فينا، كأننا نرسمه باستمرار دون أن نشعر، وهي طفولة مثقلة اليوم بذاكرة غنية، تحمل في طياتها الفقد والحلم معاً. أحاول أن أصنع من هذا توازناً بين الحنين والأمل.

■ هل تعتقد بخصوصية للوحة التشكيلية السورية في مرحلة ما بعد جيل الرواد الكبار، الذين شكلوا علامات متميزة على مستوى سورية والعالم العربي؟

نعم، يمكن أن نقول ونتحدث عن خصوصية محلية، الخصوصية اليوم مسألة نسبية، حيث لم يعد الفنان مرتبطاً بجغرافيا محددة أو بالأسلوب فقط، الفنان المعاصر يعيش تحدياً وجودياً ينعكس في فنه ويواجه تحدّيات جديدة مثل العولمة، والانفتاح، الشك، الحرب، الأسئلة الأخلاقية في الفن، العلاقة بالهوية المتغيرة. نحن لا نحمل الشعلة فقط، بل نعيد مساءلتها، العمل الفني أو اللوحة السورية اليوم ليست امتداداً بالمعنى الزمني فقط، بل هي تفكيك وإعادة بناء. هذا ما يمنحها خصوصيتها: قدرتها على قول ما لا يُقال، على الوقوف في منتصف المسافة بين الانتماء والانفصال.

بطاقة

- ◀ ولد ثائر هلال في بلدة الناصرية 1967على أطراف الصحراء في ريف دمشق.
- ◀ تخرّج من كلية الفنون الجميلة بدمشق 1991.
- ◀ انتقل إلى الإمارات مطلع التسعينيات، وعمل في الصحافة مصمّماً.
- ◀ ثم انتقل للتدريس في كلية الفنون الجميلة في جامعة الشارقة.
- ◀ نال جائزة بينالي الشارقة 1997، وذهبية بينالي الرسم المعاصر في طهران 2005.
- ◀ منذ عام 2000، يقيم معرضاً سنوياً، أو يشارك في معارض ولقاءات دولية جماعية. فعرض في الشارقة ودبي وأبوظبي ودمشق وبيروت ولندن والقاهرة وسيول والإسكندرية وطهران ودكّا.

حفلات التيوس المتشابهة... يوسا كتب عنّا أيضاً

لن أكون شهماً ورحيماً مثلك مع الأعداء يا بابا! ذلك الوعد القاسي يقطعه رامفيس، ابن الحاكم تروخييو، على نفسه إثر اغتيال مجموعة معارضة للطاغية

غسان شما

لن أكون شهماً ورحيماً مثلك مع الأعداء يا بابا!

ذلك الوعد القاسي يقطعه رامفيس، ابن الحاكم تروخييو، على نفسه إثر اغتيال مجموعة معارضة للطاغية الذي حفر بعظام معارضيه ودمهم، اسمه على جدران التاريخ الحديث واحداً من أعتى الطغاة، وبنى على هياكلهم مملكة الرعب التي استمرت ما ينوف على الثلاثين عاماً بقليل.

الروائي ماريو فارغاس يوسا يجول في ذلك السجن الكبير، وما تفرع عنه من سجون صغيرة، عبر روايته الشهيرة «حفلة التيس» رافعاً التوثيق إلى جدارة اللغة الروائية النابضة في التقاطها لواقعية لا تخلو من الخيال، لكنه خيال ينحني بتواضع «المهزوم» أمام واقع يفوق هذيانات أكثر العقول القادرة على الإبحار فوق عواصف الخيال بكل ما فيها من جموح محتمل.. وأمامها يطفو السؤال: هل يعقل أن يكون هناك ما هو أكثر؟

يقول الجنرال تروخييو عن ابنه: «أه لو أن رامفيس، الابن المحب، قادر على إكمال مسيرته، ولكن ليس لديه أي اهتمام بالسياسة أو البلاد، لا يهمه سوى الخمر والبولو والنساء».. لكن الطاغية لم يكن يعرف ابنه جيداً، فقد أظهر هذا، بعد اغتيال والده، من المهارات والفنون الدموية ما كان سيجعل الأب أكثر فخراً بابنه الرخو. الابن المدلل الذي منحه الأب بعاطفته الملتهبة رتبة جنرال، وهو في السابعة من عمره، لتبدأ الرقاب بالانحناء أمامه مبكراً.

أقام تروخييو نظاماً لا يمكن لأحد النجاة منه. يقول أحد المشاركين بعملية الاغتيال: «فكر بالنظام الشيطاني الذي تمكن تروخييو من خلقه، والذي يضطر الدومينيكانيين جميعهم إلى المشاركة فيه كمتواطئين. نظام لا يمكن أن ينجو منه إلا المنفيون، وهم لا ينجون دائماً، والموتى، فالجميع في البلاد كانوا أو سيكونون بطريقة أو بأخرى، جزءاً من النظام».

لكن أسوأ ما يمكن أن يبتلى به المرء في هذه البلاد أن يكون ذكياً أو كفوءاً «لأن تروخييو، عاجلاً أو آجلاً، سيستدعيه لخدمة النظام، أو لخدمة شخصه، وعندما يستدعي أحداً، ليس من المسموح له أن يقول لا».

وهكذا إذا أراد الأغنياء أن يبقوا أغنياء «عليهم أن يتحالفوا مع الزعيم، أن يبيعوه حصة من شركاتهم، وأن يشتروا حصة من شركاته الخاسرة ويساهموا بذلك في عظمته وسلطته».

لكن مهلاً فالزعيم يجود، وبكرم بالغ، «يعرف كيف يكافئ الولاء. «خلق لهم أعمالاً تجارية لكي يكسبوا مبالغ محترمة ولا ينهبوا الدولة».. ... ومع ذلك هناك ما هو مدهش حقاً، إذ كان ثمة قليل من اللصوص، وشيء من «الآمان» تتباهى به سلطة تروخييو المرتدية طاقية إخفاء شديدة الحضور والسطوة: «لم يكن هناك لصوص كثيرون يدخلون البيوت، ولم يكن ثمة نشالون كثيرون ينقضون في الشارع لانتزاع حقائب وساعات وعقود المارة، ولكن كان الناس يُقتلون، ويُضربون، ويُعذبون ويختفون، بمن في ذلك أكثر الناس قرباً من النظام» يصرخ أحد المشاركين في عملية اغتيال الطاغية: «لقد انتزع التيس من البشر الخاصية المقدسة التي منحهم إياها الرب: الاختيار الحر».. لكن قلب ذلك المعارض ليس مجرداً من الشفقة «أحسُ بالشفقة على هؤلاء الأتباع المجتهدين، الذين جعلهم يعيشون في قلق مؤبد».

الزعيم تروخييو، المنعم، أبو الوطن.. لو كان يوسا أكثر حذاقة من ذلك بقليل لقال: سيد الوطن. كان يسعى، بكل ما يمتلك من طاقة، لبناء البلاد، وكانت تلك المهمة موكلة للخالق سابقاً لكنه ومنذ توليه السلطة، بعد انقلاب دموي، استلم، وبكل تواضع ورضى، هذه المهمة الشاقة. وبعد سنوات مديدة، يسأل القائد المفدى تروخييو «الدمية» التي وضعها على كرسي الرئاسة: أما زلتَ تؤمن بأن الرب قد سلمني المهمة؟ وبأنه حملني مسؤولية انقاذ هذه البلاد؟ فترد الدمية: «أكثر من أي وقت سابق يا صاحب الفخامة. ما كان بمقدور تروخييو أن ينجز هذه المهمة التي تفوق طاقة البشر دون دعم متعال. لقد كنتَ سيادتك بالنسبة لهذه البلاد أداة من الكائن الأعلى».

الديكتاتوريات تتشابه في كل مكان وحكاياتها واحدة

وهكذا أيضاً كان موت معارضيه المفاجئ، ورمي جثثهم، أحياء وأمواتاً، لتلتهمها التماسيح قرب هاوية جبل مطل على النهر، سرعان ما يضعه مساعدو الطاغية في السياق القدري الذي يحافظ على صورة تروخييو كأداة متعالية «أحكام الذات الإلهية حتمية ولا مفر منها»..

بعد اغتيال الطاغية تروخييو كان لا بد من وقفة «وفاء» أخيرة من أبناء الشعب الذين عاشوا في ظل المنعم «أبو الوطن» لوداع أخير لجلالة جسده المبجل «الرتل الطويل لآلاف وآلاف الدومينيكانيين من كل الأعمار والمهن، ومن كل الأجناس والطبقات الاجتماعية، ينتظرون لساعات وساعات تحت شمس محرقة، لكي يصعدوا درجات القصر، وسط صرخات الألم الهستيرية والدوار، والعويل، والقرابين، وطقوس الحمد ليقدموا فروض التوقير الأخير إلى الزعيم».

في الوقت نفسه، كان الابن رامفيس، رفقة رجل المخابرات الأكثر دموية، يشرف بنفسه على حفلات التعذيب الأسطورية التي ينحني الشيطان «لعبقرية» تفاصيلها وحداثة أساليبها التي يتعرض لها المشاركون في المؤامرة الدنيئة، قد تجعلك تتقيأ وأنت تلتهم سطورها السوداء: «..وبدلاً من طبق الذرة المعفن المعهود، أحضروا لهما قدراً فيها قطع لحم. فأختنقا وهما يأكلان بأيديهما حتى شبعا. فعاد السجان للدخول بعد قليل، وواجه بايث مباشرة قائلاً له إن الجنرال رامفيس تروخييو يريد أن يعرف إذا كان لا يشعر بالقرف وهو يأكل لحم ابنه؟ فشتمه ميغيل انخل بايث وهو جالس على الأرض: قل للقذر ابن العاهرة هذا أن يبتلع لسانه المسموم لعله يتسمم. فانفجر السجان في الضحك ثم غادر ورجع ليعرض عليه من الباب رأساً فتياً يحمله من شعره. وقد مات ميغيل انخل دياث بعد ساعات من ذلك بين ذراعي موديستو بسكتة قلبية».

عندما تيقن رامفيس، وأخوته وأعمامه، أن إمبراطورية تروخييو قد انهارت تماماً، وأنه لا عودة إلى الوراء، سارعوا إلى عقد اتفاقيات تضمن لهم هروباً آمناً حاملين ملايين الدولارات التي ستضاف إلى أرصدتهم الخارجية الكبيرة من أموال منهوبة ومهربة خلال سنوات طويلة، ومخلفين حشوداً وأرتالاً لا تنتهي من الفقراء والجائعين والخائفين، لكن ليس من دون أمل.

ترى هل كان فارغاس يوسا يدون وقائع وأحداثاً جرت هناك، أم هنا، أم في بقعة ما من مستشفى أمراض عقلية بحجم كوكب، في عماء كون متلاطم؟

(كاتب سوري)

صورة بشار الأسد تحترق في دمشق، 2024/12/20 (كريس ماكغروث/ Getty)

صدى

صباح الخير أيّها الخوف

رباب هلال

تجول عيناك وجوهاً وأجساداً يتآكلها الحذر والخوف مجدّداً. تسبر نظراتك العيون، تحدّق في الفضاء السوريّ الكالح، يشحنه التربّص، التشبيح، والتجييش، التحريض الطائفي، قتل على الهويّة الطائفيّة، قتل بذرائع واهية سخيفة يطلقها عملاء مأجورون، وطائفيّون موتورون من جميع الأطراف، ذباب إلكتروني محليّ وعربي ودولي، يمارسون لعبة الدم. اتهامات واتهامات مضادّة، سرديّات مظلوميّات حقيقيّة، وأخرى كاذبة. عيون الضحايا من المدنيّين الأبرياء؛ عجائز وشبّاناً؛ نساء وأطفالاً، تحتفظ بصور قاتليها، تحيطها شماتة الانتقام الجسيم، والإمعان بالشكّ الفارغ في تحقّق حدوثها، أو تاريخه، بغية تكذيبها ونكران مرتكبيها الحقيقيّين، ومطالبة الإعلام الرسميّ بإعلان الحقيقة، إعلام يذكّر بالإعلام الأسدي الهزيل وتضليله الفاقع. في الحين لا يزال القتل يسري في مجازر جماعيّة أو فرديّة، هنا وهناك. إضافة إلى نهب الممتلكات والبيوت أو إحراقها، والخطف، وبوجه خاصّ لنساء من طائفة بعينها.

يستغيث الحاضر، فيتصدّى له عتاة التشبيح والانتهازيّين والمستفيدين الجدد من يساريّين تائبين، ومثقّفين وفنّانين وكتّاب، بينهم من صمت سابقاً صمت الأموات، برفع القوائم الأسديّة المشينة بجرائمها وفسادها. إلى أن باتت تلك القوائم المرفوعة اليوم تبريراً سافراً لكوارثنا السوريّة القائمة.

ذلك كلّه، يدور وسط ضبابيّة سلطويّة وقانونيّة، وفلتان أمنيّ مرعب، تحت سماء يستبيحها العدوان الإسرائيلي، في كلّ أطرافها، وفي قلبها دمشق.

صباح الخير، أيّها الخوف. مساء الخير، أيّها الرعب.

على مدى عقد ونصف العقد، خسرنا كثيراً من الطاقات الإبداعيّة، قتلاً، واعتقالاً وتهجيراً، فأصيبت البلاد بالفالج. واليوم، تعاني المؤسّسات التعليميّة بمراحلها المختلفة من خطر كارثيّ يتجدّد ويتّسع على الجغرافيا السوريّة، بسبب عدم استقرار الأوضاع الأمنيّة. فرغت المدارس، والمعاهد والجامعات، لمدّة طويلة من الطلّاب والكوادر التعليميّة، وإن اختلفت نسبيّاً بين منطقة وأخرى، تبعاً للترهيب والترعيب، وحدوث معارك ومجازر، قتل فرديّ وخطف، لأساتذة وطلّاب، وطالبات بشكل خاصّ، ليس آخرها خطف الطالبة ميرا جلال ثابت في حمص، التي اختفت في المعهد خلال تقديمها الامتحان، بحسب شهادة والدها الذي رافقها، ومكث عبثاً ينتظر في سيّارته الخاصّة أمام المعهد خروجها لإعادتها بأمان وسلام إلى المنزل. في وسط المعهد، اختفت ميرا الصبيّة الصغيرة، لتظهر بعد أيّام عديدة، بلباس عجيب غريب، كأنّما يخبّئ عورة، وملامح وجه مجبولة بالخوف والقهر والذلّ، رفقة رجل يعلن أنّها زوجته شرعاً. فأيّ شرع يقضي بانتهاك صارخ، وإجرام أخلاقيّ قانوني يطاول المرأة، وينال من كرامتها وعفّتها، ويغتصب جسدها، روحها، مستقبلها وحياتها؟ وأيّ شرع يستبيح عرض الآخر وشرفه ويقتل مستقبله، ويكمّ فمه عن قول الرواية الحقيقيّة تحت التهديد والوعيد، كما حدث لثلاث نساء أو أربع فقط، عُدن إلى عائلاتهنّ بعد خطفهنّ؟

حرمان الطلّاب عامّة من حقّهم الإنسانيّ والقانوني والشرعيّ في التعليم، سواء في حمص أو وحماه أو الساحل، واليوم، يطاول طلّابنا من محافظة السويداء الذين يهربون من جامعات حمص ودمشق وحلب.

متى سيبدأ مسار العدالة الانتقاليّة وتطبيق القانون بشكل حقيقيّ وفعّال وعادل؟ ومتى ستعود الحياة الطبيعيّة اليوميّة التي يكاد الترعيب والتهديد يشلّها حتى الساعة، في أغلب مناطق البلاد؟ فهل تتعافى البلاد كلّها، وعلى رأسها دمشق، وأطرافها مشلولة. فسوريّة لن تكون بخير إطلاقاً، قبل أن يهلّ الفعل المضارع على جهاتنا كلّها أبيض ووردياً لونيْ أصالة قلوبنا السوريّة المنهكة الضالّة.